عصر الخفاء

البارون فون أوفنباخ

داعية ومغامر ومشعوذ

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء فى أوربا ، تزدهر فيه الدعوات والحركات السرية ، ويزدهر فيه أقطاب الدعاة السريين ؛ ففى أوائله نرى حركة البناء الحر (الماسونية) تتغلغل فى أنحاء أوربا ، وتقوم طائفة أخرى من الحركات والجمعيات السرية ؛ وفى أواخره نرى طائفة من أقطاب المغامرين الذين يتشحون بأثواب الخفاء والشعوذة يجوبون أوربا من أقصاها إلى أقصاها ، ويثيرون الروع والدهشة أينما حلوا ؛ ولهؤلاء الدعاة المغامرين سير عجيبة تفيض بها سير القرن الثامن عشر ، وتبدو كأنها قصص مشرق ، بيد أنها ترجع فى الغالب إلى كثير من الحقيقة ، وكل ما هنالك أن هذه الحقيقة يكتنفها كثير من الغموض والخفاء يرجع إلى ظروف العصر والمجتمعات التى ظهر فيها أولئك الدعاة المغامرون

ومما يلاحظ أن معظم المغامرين والدعاة السريين الذين ظهروا فى هذه الفترة هم يهود أو ينتمون إلى أصل يهودى ، وأن معظم الحركات والدعوات السرية التى ازدهرت فيها ترجع أيضاً إلى أصل يهودى ، أو نلمس فيها على الأقل وحى الدعاية اليهودية ؛ وهذه الملاحظة ترجع فى الواقع إلى ظاهرة تاريخية أعم ، وهى أن اليهودية كانت منذ العصور الوسطى مستقى أو مبعثاً لكثير من الحركات والجمعيات السرية التى قامت فى أوربا ، ومعظمها يرمى إلى غايات هدم دينية أو اجتماعية ، تقصد بها النصرانية ومبادئها وعقائدها قبل كل شىء

وقد كانت « الكابالا » اليهودية منذ العصور الوسطى أكبر مصدر لهذه الدعوات والرموز السرية . والكابالا شهيرة فى تراث اليهودية الروحى والفلسفى ، وهى عبارة عن مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والرموز السحرية ، يتوارثها أ اليهودية ودعاتها منذ أقدم العصور ، وأخص تعاليمها الر أن الله وهو الكائن المطلق الخالد ينبث من نفسه إلى عالم الأ النقية ، وأن روح الانسان تنتقل من جسم إلى جسم حتى فى النهاية إلى الله وتفنى فيه ؛ ولكن الكابالا اشتهرت بالأ برموزها السرية وتعاويذها السحرية ، وقد كانت هذه العصور تراث الخفاء فى يد الدعاة والمشعوذين ، يستغلون به سذ الكافة ، ويتخذونه سلاحاً قوياً لبث دعواتهم وتحقيق غ فى مجتمعات مؤمنة يروعها السحر والخفاء على كر العصور

وقد بلغت هذه الدعوات والتعاليم السرية اليهودية القوة والذيوع فى القرن السابع عشر ؛ وكانت بولو وبالأخص مقاطعة بودوليا التى كانت يومئذ منزلا لطوائف ك من اليهود ، مركزاً للدعوة الكابالية ؛ وكانت هذه الد تتمخض من آن لآخر عن ثورات دينية يتردد صداها فى المج اليهودى كله . وفى أواسط القرن السابع عشر ظهر فى ت شابتاى زيبى ، وهو داعية يهودى زعم أنه المسيح المنتظ فأثار ظهوره ومزاعمه فتنة كبيرة فى المجتمع اليهودى ؛ ولم « المسيح المنتظر » سوى داعية ماهر من دعاة « الكابالا وفى أواسط القرن الثامن عشر ظهر فى بولونيا عدة متعاقبة الدعاة الكاباليين ، أشهرهم اسرائيل البدولى الذى أسس طا « الحسيديم » ؛ وكان اسرائيل بارعاً فى ضروب الشع واستخدام الرموز والتعاويذ السحرية ، فلقيت دعوته ص كبيراً ، والتف حوله كثير من اليهود الذين خرجوا على تع « التلمود » وتقاليده

وفى ذلك الحين أيضاً ظهر داعية من أعظم دعاة الكابالا وأشدهم خفاء وغموضاً ، فأثارت شخصيته الغامضة ، وحي العجيبة ، ومزاعمه الخارقة ، وبذخه الطائل أيما روعة ودهـ فى مجتمعات أوربا الوسطى . واسم هذا الداعية الغريب يعقو فرنك ، وكل ما نعرف عن نشأته وحياته الأولى أنه ولد فى بولوني وكان فى حداثته يشتغل بتقطير الخمور ؛ ثم تجول حيناً فى بلا القرم وفى تركيا ، ودرس تعاليم « الكابالا » ورموزها دراسـ عميقة ، واتصل بأنصار شابتاى زيبى ودعاهم إلى لوائه ، ثم ع

ى بودوليا منزل الحركة الكابالية ، وهنالك أسس فى سنة ١٧٥٥ طائفة جديدة تعرف بجماعة « الزوهاريين » نسبة إلى « زوهار » أى كتاب الضوء ، وهو من الكتب العبرية الكابالية ؛ ولم يلبث أن ذاعت دعوته وقويت عصبته ؛ ونهض لمقاومته جماعة « التلموديين » الرجعيين ، ونشبت بينهما خصومة قوية ، فالتجأ فرنك إلى حماية أسقف كامنيك وأفضى إليه بميوله النصرانية ، وأحرق التلمود علناً ؛ وعاونه الأسقف على مقاومة خصومه حيناً ولكنه لم يلبث أن توفى ، واشتد الأحبار اليهود فى مهاجمة فرنك ومطاردته ، وأوقعوا به لدى حكومة وارسو ، ولدى مبعوث البابا ، وصوروه للسلطات الدينية والمدنيـة يهودياً مرتداً ، ونصرانياً مماذقاً ، وأن دعايته خطر على العقائد المرعية ، فهبت السلطات لمقاومتـه ، وبدأت يد المطاردة تعمل لسحق « الزوهاريين » وتشريدهم

والواقع أن مذهب فرنك لم يكن يهودية خالصة ولا نصرانية خالصة ، بل كان مزيجاً غريباً من اليهودية والنصرانية والوثنية ؛ ولم تكن بولونيا مهداً خصباً لمثل هـذه الدعوات الجريئة ؛ فلم يمض بعيد حتى قبض على فرنك بتهمة الارتداد الكاذب ونشر الالحاد والكفر ، وزج إلى قلعة شنتشوف ، وبادر كثير من أنصاره بالفرار إلى تركيا ، واعتنق الكثلكة كثير ممن بقى منهم فى بولونيا ، ولكنهم بقوا يهوداً فى سرائرهم ، وقبض على عدد منهم ، وحكم على البعض بالأشغال الشاقة ، ولكن كثيرين منهم استطاعوا أن يتقوا بستار الكثلكة ويل المطاردة ؛ ولقى الذين هاجروا إلى تركيا عنتاً واضطهاداً من السلطات الدينية فى مولدافيا ، وانقض عليهم العامة ونهبوهم ، وتفرقوا فى كافة الأنحاء . أما يعقوب فرنك فلبث يرسف فى سجنه حتى سقطت قلعة شنتشوف فى أيدى الروس فى سنة ١٧٧٢ ، وعندئذ أطلق سراحه ؛ فتجول حيناً فى بولونيا وبوهيميا ومورافيا متشحاً فى الظاهر بثوب الكثلكة ، وهو يجمع الأموال والرسوم الفادحة من أنصاره وأبناء جلدته ، ويثير الروع والاجلال بين الكافة بمظاهر بذخه ؛ وكان مذهب الزوهاريين قد ذاع فى المجتمعات اليهودية فى تلك الأنحاء ، وكانت تعاليمهم أكثر جنوحاً إلى النصرانية ، فهم ينكرون التلمود ، ويسلمون بالتثليث والحلول ، ولكن ينكرون أن المسيح وحده أهل للحلول ؛ وكان هذا المزيج بين المذاهب والتعاليم المختلفة ملاذ الدعاة فى كل عصر ، فهم يزعمون دائماً أنهم ينشئون مذهباً أو ديناً جديداً ، ولكنهم يعمدون دائماً إلى الاقتباس من المذاهب والأديان القائمة ، ويسبغون على مزيجهم نوعاً من الجدل الغامض للتمويه على العامة والبسطاء

على أن يعقوب فرنك غدا مذ قوضت دعائم طائفته رجلا آخر ، فهو لم يبق بعد داعية يتزعم مذهباً جديداً ؛ ولم يبق بعد اعتناق الكثلكة يهودياً ينفث دعايته إلى أبناء دينه ؛ بل غدا فى الواقع شخصية جديدة يحوطها خفاء من نوع جديد ؛ ذلك أنه ظهر فجأة فى المجتمع الرفيع ، يعيش فى بذخ شرقى طائل ، ويحيط نفسه بحاشية كبيرة فخمة ، ويدهش المجتمعات الرفيعة فى ألمانيا والنمسا بروعة مظاهره وفيض بذخه ؛ وما زالت حياة فرنك فى تلك الفترة لغزاً ، وما زال مصدر ثرائه المدهش سراً على التاريخ ؛ ومن ذلك الحين يعيش فرنك فى فينا وفى برون على مقربة منها ، تحيط به أروع مظاهر الفخامة والبذخ ، كما يحيط به أعمق الأسرار وأغرب المزاعم ؛ ولبث فرنك مدى حين يدهش البلاط النمسوى وكل مجتمع فينا الرفيع بشخصيته الخفية ، وحياته الفخمة الباذخة ؛ وكانت له ابنة حسناء تدعى « حوه » ، استطاعت أن تتقرب من الأمبراطورة ماريا تيريزيا ، وأن تنال لديها حظوة ونفوذاً ، وأن تمهد لأبيها كثيراً من السبل ؛ ولكن الريب الذى يلاحقه أينما حل كان يحيط دائماً بشخصيته ومحيطه ووسائله ومزاعمه ؛ ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرة النمسا ليتقى شر الاتهام والمطاردة ، وعندئذ تحول إلى مدينة أوفنباخ بألمانيا على مقربة من فرانكفورت ، واستقر بها مع حاشيته الكبيرة ، وعاش هنالك بنفس البذخ الطائل الذى كان مثار الروع والدهشة والاعجاب أينما حل

وعاش فرنك فى أوفنباخ أعواماً طويلة ، وتسمى بالبارون فون أوفنباخ ، وهو لقب يغلب عليه فى كتب التاريخ والقصص ؛ وأثار بروعة بذخه ومظاهره طلعة المجتمع الألمانى ودهشته كما أثار دهشة المجتمع النمسوى من قبل . ويقدم إلينا المؤرخ الألمانى بيتر بير وصفاً روائياً شائقاً لحياة فرنك العجيبة وبذخه المدهش فيقول لنا : « كانت له حاشية من بضع مئين من الفتيان والفتيات اليهود ذوى الحسن الرائع ؛ وكان يذاع أن صناديق المال تنهمر عليه فى كل يوم ولا سيما من بولونيا ، وكان يخرج كل يوم فى

موكب حافل ليقيم شعائره فى العراء ، فى عربة تجرها جياد مطهمة ، ومن حوله عشرة أو اثنا عشر فارساً روسياً فى حلل حمراء خضراء موشاة بالذهب ، وقد شهروا الرماح ووضعوا فى قلنسواتهم رموزاً من النسور أو الوعول أو أهلة وشموساً وأقماراً ؛ وكان الماء يصب دائماً حيثما كان يقيم شعائره ؛ وكان يؤم الكنيسة فى مثل هذا البذخ ، وهنالك يؤدى القداس بطريقة خاصة ، وفى خشوع خاص ؛ وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود ، بيد أنه توفى فى سنة ١٧٩١ ؛ ودفن فى بذخ يعدل بذخ حياته ، وسار وراء نعشه موكب من ثمانمائة ؛ بيد أن سر ثرائه وبذخه دفن معه فى قبره ؛ وانحدرت أسرته بعد وفاته إلى حالة من البؤس تدنو إلى التسول ؛ وعبثاً حاولت أن تستدر عطف أنصاره أو صدقتهم ؛ ولم يمض سوى قليل حتى غمرها النسيان والعدم ، واضطرت لكى تعيش أن تزاول أعمال الحياة الفانية » (١)

هذه هى قصة يعقوب فرنك وقصة حياته العجيبة . قصة مغامر ومشعوذ بارع استطاع أن يستغل ظروف عصره ، وما كان يسود مجتمع عصره من إيمان وتعلق بالخوارق والأساطير . بيد أنه من الخطأ أن نقف عند هذه الصورة الظاهرة من حياته . ذلك أن حياة فرنك كانت سراً من الأسرار التى لا تنفذ إليها طلعة الكافة ، وكان وراء هذه الحياة الفخمة الباذخة ناحية أخرى يغمرها الخفاء المطبق . هل كان فرنك يعمل لنفسه وبوسائله الخاصة أم كان يعمل بوحى قوة خفية أخرى تمده بأسباب البذخ الطائل وتدفعه إلى المجتمع مزودا بتلك المظاهر الرائعة لكى يعمل على بث دعاية معينة وتحقيق أغراض معينة ؟ لقد كان العصر الذى ظهر فيه فرنك عصر الخفاء حقاً ، وكانت موجة من الخفاء والتعلق بالخوارق والمجهول تغمر مجتمعات أوروبا الرفيعة وتملك عليها تفكيرها وأهواءها ؛ وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه فرنك مسلحاً بأسراره ومظاهره العجيبة ، ظهر يوسف بلسامو أو الكونت كاجليوسترو مسلحاً بمثل هذا الخفاء وأثار دهشة المجتمعات الرفيعة ولا سيما فى فرنسا بمظاهره وأعماله العجيبة ومزاعمه الخارقة ؛ وظهر فى نفس الوقت مغامر آخر من نفس الطراز وإن كان أقل روعة وتأثيراً ، وهو الكونت سان جرمان واقتفى أثر زميله فى التذرع بالخوارق . ومما يلفت النظر أن الثلاثة كانوا يهوداً ؛ وقد كانت اليهودية يومئذ مبعث الحرّ والدعوات السرية ، وكانت الكابالا اليهودية كما أسلفنا مـ خصباً للدعاة السريين فيما يعرضون من ضروب الر والأساليب السحرية ، وكانت حركة البناء الحر (الماسو يومئذ تضطرم فى جميع أوربا ؛ وقد أثبت البحث الحديث لحركة البناء الحر أغراضاً خفية غير الأغراض الانسانية تتظاهر بها ، وأنها تعمل لغاية ثورية شاملة هي سحق الأ والمعتقدات القائمة كلها ، وادماج الانسانية كلها فى نوع التفكير الحر المطلق والمساواة الاجتماعية المطلقة . ويرى بـ الباحثين أن الثورة الفرنسية كانت مؤامرة « ماسونية » و من نفثات البناء الحر ، وأن محافل البناء الحر هى التى نظ خططها وبرامجها الأولى ، بل يرى بعض الباحثين أن الـ البلشفية الحديثة ليست بعيدة عن تأثير البناء الحر ، وأن ما إليه من إحداث ثورة عالمية يطابق نفسه الغاية التى يعمل البناء الحر ؛ وقد كان أولئك الدعاة المغامرون الذى خلبوا الـ أوربا فى القرن الثامن عشر يتصلون بمحافل البناء الحر اتـ وثيقاً وإن يكن خفياً . أفليس لنا أن نعتقد بعد ذلك أن يعقو فرنك لم يكن مغامراً أفاقاً يعمل لنفسه ولمطامعه الشخصية ، بـ بالعكس كان داعية خطيراً يبعث حركة خطيرة لها صلة بخطط الـ الحر وغاياته ؟ وأنه كان يستمد المال الوفير والنصح والحماية قوة خفية أعظم ؟ هذا ما نرجح ، وهذا ما يؤيده خفاء حـ وخفاء وسائله ومزاعمه وغاياته ، واتشاحه بثوب الدعوة الذ التى كانت على كر العصور ملاذاً لمختلف الدعوات والغايات

محمد عبد الله عنان

ظهر حديثاً

ديوان أحلام النخيل

للشاعر الشاب عبد العزيز عتيق

صور صادقة من شعر الوطنية والطبيعة والوجدان

يطلب من المكاتب الشهيرة . وثمنه ٦ قروش

(١) بيتر بير فى كتابه : Geschichte der Juden